عهد الإمام
فيصل بن تركي الأول
١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ هـ

مراحل حياة الإمام فيصل بن تركي

عام ولادته: ١٢١٥ هـ/ ١٧٩٤ م تخميناً.

عام نفيه الأول إلى مصر: ١٢٣٤ هـ. (وبقي في المنفى تسع سنوات).

عام هربه من مصر: ١٢٤٣ هـ. (هرب فيصل من مصر وقدم على أبيه يوازره ويقوده كثيراً من حملاته).

عام ولايته الأولى: (١٢٥٠ ـ ١٢٥٤ هـ). (تولى فيصل الإمامة بعد وفاة أبيه، وبقي فيها حتى سنة ١٢٥٤ هـ).

عام نفيه مرة ثانية إلى مصر: (١٢٥٤ هـ). (نفي إلى مصر وبقي فيها أسيراً سجيناً حتى سنة ١٢٥٩ هـ. أي خمس سنوات).

عام هربه من مصر وعودته وتوليه نهائيًا: (١٢٥٩ هـ). (توفى فيصل الإمامة للمرة الثانية وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٢٨٢ هـ. وكان عمره (٨٠) عاماً.

ويقول بيلي ويندر: تُوفي الأمير فيصل بداء الكوليرا في ١٣ رجب ١٢٨٢ هـ.

وفي صحيفة الخليج الفارسي: أصيب الأمير فيصل بالشلل ومات في ٢ ديسمبر بالرياض.

وفي كتاب عقد الدرر: في سنة ١٢٨٢ هـ لتسع بقين من رجب توفي الإمام فيصل.. في الرياض.

وفي كتاب خلاصة الكلام لزيني دحلان: «أصابت الإمام فيصل في آخر عمره غشاوة في عينيه فصار لا يبصر، فكان يوقف عنده بعض خدمه، يعرفون الناس ويخبرونه بكل من أقبل للدخول عليه قبل أن يصل إليه».

ولاية الإمام فيصل الأولى

(من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٢٥٤ هـ)

يمكننا القول إن ولاية الإمام فيصل بدأت في النصف الأول من شهر صفر سنة ١٢٥٠ هـ، بعد مصرع مشاري واستسلام جماعته، ثم اجتماع المسلمين على فيصل.

توطئة:

سنتتبع في حديثنا عن الإمام فيصل بن تركي، خلال ولايته الأولى، أسلوب الحوليات الذي اتبعه ابن بشر، ونورد روايته بنصها أو خلاصة عنها، ثم نظهر ما وقع فيها من أغلاط ـ إن وجدت ـ ونصحّحها، ونوضح كذلك ما ورد فيها من أخبار مبهمة أو منقوصة مبتورة، جلاءً للوقائع التاريخية وأسبابها الحقيقية.

وأمر آخر بالغ الأهمية، لم ينبه عليه، فيما نظن، مؤرخو الإمام فيصل، وهو أن الوقائع التي وردت في طائفة من حوليات ابن بشر وعقد الدرر وغيرهما تظهر للقارىء أن الإمام فيصل كان رجلاً فتاكاً، يقتل رجال العشائر وينهب أموالهم ويسلب ممتلكاتهم ويدمرها..

كان ابن بشر في أوائل كتاباته عن فيصل يفسر لنا الأسباب التي حملت الإمام فيصل على إنزال العقوبات الشديدة بالبدو وقطاع الطرق، ولكنه أهمل ذلك فيما بعد.

ومن هنا وجب علينا أن نقوم بتبيان الظروف التي حملت الإمام فيصل، المعروف بحنانه ولينه وحبه لشعبه، أن يستعمل الشدة أحياناً، حفاظاً على أرواح الناس وسلامة ممتلكاتهم.

وكانت له، فوق ذلك، غاية مثالية، وسياسة حضارية أو تحضيرية، وهي: إلزام البدو باتباع أوامر الشرع، كالحضر تماماً، وحملهم على التخلي عن أعرافهم العشائرية المخالفة للشرع.

كيف استهل الإمام فيصل عهده؟

رسالته إلى أبناء شعبه

الإمام فيصل أول من حصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعددٍ محدد من العلماء الأتقياء، تتوافر فيهم شروط العلم والحلم والرفق ومنع الجهلة والمتزمتين من العدوان على الآخرين بحجة إلزامهم باتباع الدين. .

يقول فيلبي في «تاريخ نجد»:

«. . . افتتح فيصل عهده بمؤتمر الرياض، الذي استمر شهراً كاملاً، حضره جميع فقهاء الدولة البارزين، ومنهم علي وعبد الرحمن، حفيدا الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وولدا حسين، اللذان كانا قاضيين في الحوطة والخرج.

ثم تبع هذا المؤتمر قيام زعماء مختلف المناطق والمقاطعات بزيارات التهنئة المعتادة، لتأدية فروض الطاعة، نيابة عن الأهلين في مناطقهم».

ويقول ابن بشر إن الإمام فيصل كان يحب العلماء ومجالستهم «وكان على طريقة آبائه في تعاهد الرعية بالنصيحة وإرسالها إليهم» وكانت رسائله إليهم تقرأ عليهم ويتداولونها في الجوامع والمجالس، لكل أهل ناحية ورقة، لا يغفل عن ذلك في كل سنة.

وكان بين الذين حضروا المؤتمر عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين، قاضي الوشم، ومحمد بن مقرن، قاضي **اللهزوم**، فأعزَّهما وأكرمهما، ولم يكتفِ بعلماء آل الشيخ، مع تقديره لهم.

رسالة الإمام فيصل إلى الشعب:

بسم الله الرحمن الرحيم

من فيصل بن تركي إلى من يراه من المسلمين، سلَّمهم الله تعالى. .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأما بعد. .

فموجب الخط إبلاغهم السلام، لا زلتم في خير وعافية، والذي أوصيكم به: تقوى الله تعالى في الغيب والشهادة، والعمل بما يرضيه وتجنب معاصيه، والمعاداة والموالاة فيه.

قال الله تعالى: ﴿تعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله، إن الله شديد العقاب﴾.

وأهم الأمور تعلُّم ما فرض الله سبحانه من معرفة أصل دين الإسلام وأركانه وواجباته وجميع شرائعه، ومعرفة ذلك بالكتاب والسنة، وقوام ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا بد في كل ناحية طائفة متصدون لهذا الأمر، كما قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

وقال تعالى: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون﴾.

وأنا ملزم كل من يخاف الله تعالى ويرغب في الفلاح أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأن يكون الآمر مراعياً للشروط في ذلك بأن يكون عليماً فيما يأمر به، عليماً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه.

وألزم كل أمير يكون عوناً لهم، وهم خاصته في الحقيقة، عوناً له على ما حمله الله تعالى من الأمانة.

ويكون لديكم معلوماً أني واضع (الجوائز) عن المسلمين، الحادر منهم والظاهر، إذا كانوا معروفين بأداء الزكاة من أموالهم الظاهرة والباطنة، وهي راجعة إليهم على الوجه المشروع، إن شاء الله تعالى.

والمطلوب منكم الاستقامة على هذا الدين والاجتماع عليه، وقد رأيتم ما في الجماعة من المصالح العامة والخاصة وما في التفرق من الشر في أمر الدين والدنيا.

أسأل الله تعالى «أن يمنّ علينا وعليكم بالقبول والعفو والعافية في الدنيا والآخرة والسلام».

الإمام فيصل يكرِّم الأمراء والعلماء ويقرُّ قضاة أبيه في مناصبهم

يقول ابن بشر إن أمراء البلدان ورؤساء العربان وفدوا على الإمام من كل جهة «فهنَّؤوه وبايعوه فأقرهم وأعطاهم وحباهم وكساهم، وأقر القضاة على أعمالهم في بلدانهم: الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب على بلدان الخرج، وأخوه عبد الملك في حوطة بني تميم وابن أخيهم حسين بن حمد في الحريق، والشيخ محمد بن مقرن على بلدان المحمل، والشيخ عثمان بن منصور على سدير، والشيخ عبد العزيز بن عثمان بن عبد الجبار على منيخ . . . وكذلك الباقون».

الشروع في جباية الزكاة:

وبعد الانتهاء من المؤتمر ومن زيارات الوفود . . شرع الإمام فيصل بإرسال جباته إلى جميع الجهات لتحصيل الزكاة المتوجبة على الأفراد لبيت المال.

ويقول فيلبي في كتابه: «تاريخ نجد» أن الإمام فيصل بلغه قيام فتنة في الأفلاج والدواسر «مما دعا الإمام فيصل إلى إرسال حملة عسكرية لإعادة النظام بين السكان.

ثم سار بجيشه لإقامة طويلة في (الشعرا) من مرتفعات نجد، وهناك أولى اهتمامه الأول نحو حاجات الناس الدينية، فجعل فقهاءه يفرضون على الأهلين حضور الدروس كل يوم بعد صلاة العصر، غير أنه لم يهمل حاجات الدولة الدنيوية وخصوصاً خزينتها، فقد ظلَّ الجباة يعملون بلا هوادة، وحين نمي إليه أن جماعة من قحطان هربوا فراراً من دفع الضرائب المستحقة عليهم، بحث الجند عنهم حتى وجدوهم، وقام فيصل، هو نفسه، يعاقبهم على فعلتهم عقاباً صارماً، فقتل زهاء الستين رجلاً أثناء هذه الإجراءات التأديبية، ومثل هذه

الحوادث شيء عادي كثير الوقوع في حياة الصحراء، ولا يعني السخط على الحكومة».

تحصيل الزكاة وغزو العربان في رواية ابن بشر:

أمر الإمام فيصل العمال أن يخرجوا مع الرؤساء «لقبض زكاة عربانهم، فركب مع رئيس كل قبيلة عامله».

ووقع اختلاف بين أهل وادي الدواسر، «فأمر الإمام جميع بلدان نجد بالمغزى، فاجتمعوا عنده في الرياض، واستعمل فيهم أميراً حمد بن عبد الله بن عياف، فسار بهم إلى الوادي، وقصدوا بلد اللدام المعروفة، فحصل بينهم مناوشة قتال، وسار بعض الغزو إلى بلاد الوداعين، وقاتلوهم، وأقام حمد والمسلمون في الوادي أكثر من شهر، ثم قفل راجعاً بمن معه من المسلمين، وبعده أقبل رؤساء الوادي وافدين على فيصل وبايعوه..

وفيها سار الإمام فيصل، بجميع رعيته من أهل الخرج والفرع والعارض والوشم والمحمل وسدير والقصيم وجبل شمر وغيرهم، فركب من الرياض في آخر شوال، ومعه الشيخ إبراهيم بن سيف، ونزل قرب بلد تمير المعروفة، وأغار على فريق من الدواسر، وهم في أرض العرمة فأخذهم، وقتل منهم عدة رجال، ثم رجع وأقام في منزله أياماً، واجتمع عليه باقي غزوانه، ثم رحل وقصد أرض نجد، ونزل الشعرا المعروفة، وأقام فيها نحواً من أربعين يوماً، وأمر المسلمين أن يجتمعوا عنده بعد صلاة العصر للدرس والمذاكرة.

ثم بعث عماله إلى العربان ليقبضوا منهم الزكاة، وهو في منزله ذلك، فبلغه أن ابن الدجما وعربانه من قحطان هربوا من العمال وامتنعوا عن الزكاة، فحشد بالمسلمين عليهم ودهموهم في مكانهم، وقتل منهم نحواً من ستين رجلاً وغنم المسلمون كثيراً من أموالهم من الإبل والغنم والأثاث وغير ذلك، ثم رجع إلى منزله في بلد الشعرا، ووفد عليه رؤساء العربان محمد بن فيصل الدويش رئيس مطير، ومحمد بن قرملة رئيس قحطان وغيرهم، وفي أثناء هذه الغزوة أقبل وفد أهل وادي الدواسر وألفوا عليه وهو في منزله في الشعرا، وطلبوا منه العفو والصفح عن ما جرى منهم، فعفا عنهم وبايعوه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة، وأرسل معهم أميراً.

عزل أمير الجبل:

في هذه الغزوة، عزل الإمام فيصل عن إمارة الجبل: صالح بن عبد المحسن ابن علي، واستعمل فيه أميراً عبد الله بن علي بن رشيد[١].

ويرى فيلبي أن هذا العمل لم يكن موفقاً، في نتائجه على الأقل، وأن الإمام فيصل «جلب على نفسه المتاعب في إقليم قصي، عندما قرر أن يكافىء عبد الله بن رشيد صديقه الحميم ونصيره الجبار في القضاء على فتنة مشاري، بتعيينه حاكماً لجبل شمر بدلاً من صالح بن عبد المحسن، حاكمه آنذاك، وكان هذا يمثل مشيخة العائلة الحاكمة في حايل.

وقد أرسل فيصل مع الأمير الجديد أحد الفقهاء البارزين ليلقن الأهلين مبادىء الدين الصحيحة، غير أنه حدث اضطراب في حايل من أثر هذا التعيين الجديد، بدأ بنزاع حدث في الجامع بعد صلاة الجمعة، وانتهى بفرار الحاكم المخلوع مع جميع أفراد عائلته إلى القصيم، بعد اشتباك شديد مع رجال الزعيم الجديد، فلما علم فيصل بالأمر أصدر تعليماته إلى أمير القصيم أن يلقي القبض على الفارين ويقتلهم، فنفذ الأمير ذلك وقتل صالحاً وبعض أفراد أسرته، بينما هرب الآخرون إلى المدينة المنورة.

وهكذا ظلَّ عبد الله سيد شمر المطلق تابعاً للدولة السعودية، ثم خلفه في الإمارة ولدان من أولاده، أما ابنه الثالث (محمد) فلم يكتفِ بأن يعمل على استقلال دولته استقلالاً تاماً عن الرياض، بل استطاع ضم الدولة السعودية إلى دولته حتى نهاية القرن».

---

(١) وفي ابن بشر أنه لما وصل «عبد الله بن رشيد إلى جبل شمر أميراً، وأقام فيه نحو الشهر، كثر القال والقيل بينه وبين صالح بن علي وأعوانه، فحصل بينهم مجادلة في المسجد يوم الجمعة، وشُهرت السيوف وأراد الفتك بهم، وتصادموا بينهم، فقام الناس فحجزوهم بهم في المسجد فخرج صالح وأتباعه، وقصدوا قصرهم ودخلوه، فحشد عليهم عبد الله بأعوانه وأهل بلدانه فحصرهم فيه، ثم أخرجهم بالأمان عن القصر وأخرجهم من بلدان الجبل، وقصدوا بلد بريدة، وكتب عبد الله إلى الإمام فيصل يخبره بالأمر، وذكر له أنهم الذين بدأوا بالشر وأرادوا القتل فينا والخيانة، فصدَّقه الإمام، ثم بعد ذلك أدركهم في بلدان القصيم وقتلهم».

حوادث سنة ١٢٥٠ هـ

انتصار على عساكر محمد علي
وهرب قائد العسكر أحمد باشا ومعه الشريف ابن عون

في هذه السنة (١٢٥٠ هـ)، التي استهل بها الإمام فيصل عهده، حدث في عسير حدث تاريخي يستحق التنويه به، فقد أرسل محمد علي، باشا مصر، مع أحمد باشا عساكر كثيرة وأمره أن يزحف بها، مصطحباً معه شريف مكة ابن عون، إلى اليمن لمحاربة عسير وإخضاعها، وقد وصلت العساكر إلى عسير، وأعلن قائدهم أنهم ما أتوا إلا لصلاح أهل هذه المنطقة وضمان طاعتها للسلطان العثماني، خليفة المسلمين، فرضي السكان بذلك، ولكن العساكر ما لبثوا أن طلبوا منهم أموالاً.. وحاولوا غير مرة اغتصاب النساء، فتذاكر رؤساء عسير الأمر ووجدوا حلاً بارعاً وهو أن يجمعوا جموعهم ويسيروا بنسائهم وأطفالهم، وهم يلعبون ويرقصون ويغنون، نحو العساكر، فوقفت العساكر «تتفرج» عليهم وتتضاحك، ولكن العسيريين كانوا يحملون أسلحة وسهاماً وسيوفاً فهجموا على العساكر وقتلوا كثيراً منهم، واضطر أحمد باشا وشريف مكة إلى الهرب نحو مكة، ولاذ الناجون القلائل من العسكر إلى الفرار أيضاً، نحو المرفأ ليستقلوا باخرة تحملهم إلى مصر.

«وقام أهل كل بلد من عسير على من عندهم من العسكر في بلدهم وقتلوهم، وأرسل أهل عسير إلى الإمام فيصل شيئاً من سلاح العسكر وخيلهم» ـ ابن بشر ـ.

كان لهذه الهزيمة أثر هائل في نفس محمد علي باشا، والي مصر، فكتب إلى شريف مكة، «محمد بن عون، وأحمد باشا رئيس مكة، وأمرهما بالقدوم إليه، فقدما عليه في مصر، فأمسك الشريف عنده، وأذن لأحمد باشا يرجع إلى مكة، وإنما أرسل إليهما جميعاً لئلا يرتاب الشريف، ويأبى القدوم إليه» ـ ابن بشر ـ.

ويقول فيلبي، في كتابه «تاريخ نجد»:

«... في هذه الفترة، كان الأتراك في الحجاز يحاولون جاهدين أن يسيطروا

على إقليم عسير بمساعدة شريف مكة محمد بن عون. غير أن الضرائب والغرامات الفاحشة التي فرضها الجيش الكبير، الذي وفد من أجل هذه الغاية، أدّت إلى رد فعل بين القبائل، فاحتشدت للهجوم على جيش العدو وأوقعت به شر هزيمة، ولم ينج من أفراده إلا القلائل الذين فروا إلى مكة مع أحمد باشا الشريف.

وعلى أثر ذلك استدعى محمد علي باشا، الشريف وأحمد باشا إلى مصر في صيف سنة ١٨٣٥ م واعتقل الشريف، أما لارتيابه في أنه لم يلعب دور التابع المخلص الأمين أو انتقاماً منه جزاء الفشل الذي منيت به الحملة».

ملاحظة هامة حول تاجر القهوة:

وهنا، لا بدّ لنا من لفت النظر إلى حقيقة الغاية التي كان يتوخاها محمد علي، باشا مصر، من إخضاع عسير، فلم يكن غرضه مجرد الاستيلاء على السلطة في عسير، فقد كان محمد علي تاجر دخان وقهوة في بلاده، ثم أصبح والياً في مصر، ولكنه بقي في أعماقه تاجر بن ودخان، واليمن كانت مشهورة ببنها، ولا سيما بلدة (مخا)، التي يدعى البن الممتاز حتى اليوم في الغرب باسمها (موكا)، وهكذا عاد محمد علي، بعد هزيمة عسكره في عسير (اليمن) إلى جمع الجيوش وإرسالها إلى عسير مرة ثانية، ليضمن لنفسه السيطرة على تجارة القهوة، لا ليحكم اليمن سياسيًا!.

هذه الناحية أغفلها ابن بشر وكثير غيره من المؤرخين، مع أن نابليون بونابرت، حين احتلّ مصر اتفق مع شريف مكة على تسهيل إرسال البن إلى مصر بكميات كبيرة، كما كان الشأن سابقاً.

وثائق روسية بالغة الأهمية
عن معارك عسير.. وغضب محمد علي

تحدثت الأوساط الدبلوماسية الأجنبية في مصر وإستانبول عن هزيمة العسكر المصرية في عسير أحاديث يغلب عليها الصدق، وقد وجدنا في مجموعة الوثائق التي اكتشفت في القنصلية العامة الروسية في مصر، التي عرفت بشدة اهتمامها بسياسة مصر، عدداً من الرسائل بعث بها قنصل روسيا (دوهاميل) إلى وزير الخارجية الروسية عن حروب عسير ومواقف محمد علي وشريف مكة وغيرهما، فحرصنا على ترجمتها وإثباتها في كتابنا.

ومما يلفت فيها النظر أن محمد علي قال لقائده (أحمد باشا) بعد هربه وعودته إلى مصر هذه الكلمة الغاضبة القاسية:

(لقد ذهبت كالأسد. . . وعدت كالهر)

الوثيقـة الروسيـة

«١»

من دوهاميل إلى كانازاكي ـ ٢٠ تموز ١٨٣٥ م:

«ليس لدينا سوى معلومات غامضة ومتناقضة عن قضايا الجزيرة العربية، وعلى كل حال أسهل على الباشا أن يحتل هذه البلاد من أن يحتفظ بها، وهو لم يحصل حتى الآن على أية نتيجة تعادل ما أنفقه من مال ومن ضحايا في اليمن.

إن هذه الحملة نُظِّمت ونُفِّذت من غير تفكير وروية، ولم يحسب الباشا ما تفرضه عليها من تضحيات وما يعود عليه منها».

«٢»

من دوهاميل إلى نسلرود ـ أغسطس ١٨٣٥ م:

«استناداً إلى رسالة من الوكيل البريطاني في جدة، يبدو أن رجال (ألمع)، الذين صالحوا كجك إبراهيم باشا، قد تعهدوا بتسليم جمال إلى الجيوش المصرية والمحاربة معه ضد قبائل عسير.. ولقد تقهقرت قبائل عسير، فاستدرجوا بذلك العساكر المصرية إلى الداخل، ثم فاجأوها بالهجوم، وانقلب رجال ألمع هم أنفسهم على الغزاة وحاربوهم من خلف، وهكذا مزّقوا الجيوش المصرية تمزيقاً.

لم يخسر المصريون كثيراً عند احتلالهم للموانىء، ولكنهم أخطأوا بتعمقهم في الداخل وقد هرب شريف مكة وإبراهيم باشا إلى القنفذة.

وسيرسل محمد علي فرقاً أخرى، وربما قادها خورشيد باشا، وزير الحربية بنفسه».

«٣»

من دوهاميل إلى نسلرود ـ ٢٧ سبتمبر ١٨٣٥ م:

«.. بعد هزائم المصريين في اليمن، ستذهب الفرقتان ١٢ و ١٥ إلى جدة. وستعود الفرق الثلاث الموجودة في الحجاز التي تناقصت أعدادها، إلى مصر لتبدل بغيرها، وسيؤخذ لها رجال من الشام، وتؤلف فرقتان من الزنوج، وهكذا يصبح في الحجاز ٩ فرق من ٢٥ ألفاً. وعندي أن طبيعة الجزيرة العربية لن تسهل عمل هذه الفرق، وسيعاني أفرادها كثيراً من الأمراض وسوء الطقس وعناء الجبال والوديان والصحارى.

إن خورشيد باشا ضرب عسير في المكان الملائم، وهو يريد أن يكون مع جيشه المقاتل في عسير مؤن تكفيه لمدة خمسين يوماً، ويرى أن الجمال عنصر أساسي في نجاحه بالحرب».

«٤»

من دوهاميل إلى نسلرود ـ ٢٤ شباط ١٨٣٦ م:

«وصل إلى القاهرة أحمد باشا، القائد السابق لجيش الحجاز، ومعه شريف مكة، الذي تعتقد الحكومة المصرية أنه معادٍ لمصالحها، وعلى علاقة سريَّة مع

رجال اليمن، وأنه من أسباب إخفاق العمليات الحربية ضد عسير. لقد استقبلوهما بمظاهر الحفاوة والتكريم، ولكن محمد علي لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يقول لقائده أحمد باشا:

«لقد ذهبت كالأسد، وعدت كالهر»

إن أسرة الشرفاء في مكة كانت تحكم مكة دائماً بواحد من أفرادها. والسلطان العثماني لم تكن له سلطة حقيقية في مكة، وكانت تقوم منافسة ومنازعة بين شريف مكة وحاكم جدة التركي.

والشريف غالب كان أحد الشرفاء الذين يتمتعون بسلطة رهيبة، وكان السعوديون والترك يحترمونه.

في زمان غالب، جاء محمد علي لمحاربة السعودية، وكانت معه تعليمات سرية من إستانبول بأن يتخلص من الشريف غالب، ويرسله سجيناً إلى مصر ثم ينفيه إلى (سالونيك).

نفَّذ محمد علي هذه التعليمات، وعيَّن شريفاً بدلاً منه وهو الشريف (يحيى)، وسلبه من كل سلطاته، وجعله موظفاً عند الحكومة المصرية.

إن (يحيى) هذا هو الذي وصل إلى القاهرة، ومع أنه مدين بمنصبه إلى محمد علي، ولكنه أنف من تفاهة السلطة المتروكة له، واتصل سراً بعرب اليمن.

هذا ما يقال في القاهرة، ويقال أيضاً إن بعض رسائل الشريف صودرت منه، وهي تثبت تآمره، وعلى كل حال، فقد استعملوا الحيلة، حتى أحضروا الشريف إلى مصر في نفس الباخرة التي أقلَّت أحمد باشا».

حـــوادث سنـــة ١٢٥١ هـ

قـدوم دوسـري من مصـر

يقول ابن بشر، في أخبار سنة ١٢٥١ هـ:

«فيها قدم دوسري بن عبد الوهاب أبو نقطة من عند محمد علي، باشا مصر. وكان دوسري في مصر من حين نقلهم إبراهيم باشا ومحمد علي وقت حرب الدرعية، فأرسله محمد علي إلى فيصل، يطلب منه مطالب وخراجاً، وذلك حين أراد أن يجهز العساكر مع خالد بن سعود، فأراد ذلك جرأة على ما أراد، فأرسل فيصل أخاه جلوي بهدية لرئيس مكة أحمد باشا، فوصل إلى مكة وأقام بها إلى وقت الحج ثم رجع».

وفي اعتقادنا أن رواية ابن بشر ناقصة وغامضة. فماذا كان رد الإمام فيصل على مطالب دوسري؟ ولماذا أرسل فيصل أخاه جلوي إلى مكة بعد وصول دوسري؟

إن (ويندر) يوضح لنا ما فات ابن بشر توضيحه، فيقول:

«بدأ فيصل يشعر بضغط المصريين منذ عام ١٨٣٦ م، وأول ما عرف من ذلك هو مجيء (دوسري) الخائن، الذي طلب من (فيصل) مطالب وخراجاً - كما يقول ابن بشر - وهو، بالفعل، أراد إشراك (فيصل) في حملة ضد عسير، وطلب منه الإسهام في هذه الحملة بعدد كبير من الجمال.. ولكن الإمام فيصل رفض تقديم الجمال لأنهم طلبوا منه عدداً كبيراً فوق طاقته، كما أنه اعتذر.. عن الاشتراك في هذه الحملة بسبب مرضه، وأرسل أخاه (جلوي) إلى مكة ليقابل أحمد باشا، وحمَّله إليه هدية من الجياد العربية ورسالة لطيفة».

محمد علي قرَّر التخلص من فيصل وأمر بقتاله وأسره..:

يقول ويندر:

«المظنون أن فيصلاً بعث سراً مساعدات إلى حلفائه في عسير.

وقد أراد محمد علي التخلص من فيصل، فأمر الجنرال إسماعيل بك، قائد

بوليس القاهرة، أن يذهب إلى الجزيرة العربية، على رأس فرقة مختلطة من الأرناؤوط والترك والمغاربة والمصريين والبدو، وتجهيزها بمدفعية كافية، لمساعدة خورشيد وأحمد باشا، في القضاء على الدولة السعودية!

بدأ إسماعيل بك رحلته إلى الجزيرة في شهر تموز، من عام ١٨٣٦ م.

عرف فيصل بأمر إسماعيل بك منذ وصوله إلى ينبع . . . وأدرك أنه ذهب بعيداً . . فشرع يرسل مندوبيه لوقف الهجوم، وعرض أن يقدم إلى خورشيد خمسة آلاف جمل . . ولكن خورشيد طلب خمسة عشر ألف جمل، لأنها ضرورية لحملة عسير. وقد رفض فيصل ذلك، فكان الهجوم على نجد»(١).

الاتفاق مع أمير البحرين ورفع الحصار عن القطيف والعقير:

قال ابن بشر، في أخبار سنة ١٢٥١ هـ:

«وفيها، في ربيع الآخر، بعث الإمام فيصل زويداً ومعه مائة مطية إلى ناحية القطيف، فأمر فيه ونهى وعزل رجالاً وأثبت رجالاً.

ووفد ولدا أمير القطيف ابن غانم، وابن عبد الرحيم أمير سيهات على الإمام فبايعوه على السمع والطاعة».

ويقول ابن بشر، في أخبار سنة ١٢٥١ هـ أيضاً:

«وفيها أقبل أولاد عبد الله بن خليفة، وافدين على فيصل فأكرمهم، ثم أذن لهم بالرجوع إلى بلادهم».

ويندر يكمل رواية ابن بشر:

هنا يبدو لنا كلام ابن بشر مختصراً جداً . . وغير كامل . . ومغفلاً لكثير من الأحداث الهامة التي ترتبت على مجيء الوفد البحريني إلى الرياض.

ويمكننا الرجوع إلى ويندر لسد هذه الثغرة، فهو يقول لنا إن أمير البحرين كان محاصراً للقطيف والعقير، وإن زويد قام بمهاجمة جزيرة تاروت ـ التي كانت لا تزال في يدي أمير البحرين ـ تحدّيًا له، وليضطره إلى رفع الحصار عن القطيف والعقير.

وكان السعوديون قد بدأوا بمساعدة بعض العناصر الثائرة في البحرين.

---

(١) انظر كتاب ويندر، الموضوع باللغة الإنكليزية «العربية السعودية» في القرن التاسع عشر.

ثم حدثت ظروف خارجية دعت إلى تقارب أمير البحرين والإمام فيصل . وذلك أن الفرس بدأوا في صيف عام ١٨٣٦ م بتهديد البحرين ، كما بدأت نيات المصريين نحو نجد تتضح من جهة ثانية ، وهكذا اتفق الإمام فيصل وأمير البحرين على ما يأتي :

١ ـ يدفع أمير البحرين إلى فيصل كل سنة (٢٠٠٠) دينار «تالر ماريا تيريزا» .

٢ ـ يحمي فيصل البحرين من العدوان الخارجي .

٣ ـ يرفع أمير البحرين الحصار عن القطيف والعقير .

٣ ـ أمير البحرين غير ملزم بتدبير السفن لفيصل ، فيما إذا أراد غزو عمان .

وقد أرسل أمير البحرين (عبد الله بن أحمد) عدداً من أولاده إلى الرياض للتصديق على هذه الاتفاقية .

فهذا هو سبب حضور أولاد خليفة إلى الرياض ، وهو ما أغفله ابن بشر .

وقالت صحيفة «الخليج الفارسي» :

في عام ١٨٣٦ م حاول ممثل السعوديين في البحرين ، بأمر من الإمام فيصل ، دفع حاكم مسقط وبعض عشائر الشاطىء العربي إلى مهاجمة البحرين من البحر ، لمصلحة السعوديين ، ولكن حاكم عمان أجاب أنه لا يستطيع القيام بمثل هذا العمل إلا بمعرفة الحكومة البريطانية ومشورتها ، وهكذا أخفقت المحاولة .

وبعد مدة قصيرة جداً ، جرت مصالح بين الأمير السعودي وشيخ البحرين ، اللذين أصبحا ، جميعاً ، في خطر ، فالإمام فيصل تتهدده مطامع المصريين ، وشيخ البحرين تتهدده «مطامع الحكومة الإيرانية» ، وكانت النتيجة معاهدة يلتزم فيها شيخ الكويت بدفع (٢٠٠٠) دينار سنويًا إلى الإمام ، ويلتزم الإمام بحماية الشيخ من كل عدو خارجي ، ويتخلى فيصل عن مطالبة البحرين بإمداده بالمساعدة في حالة مهاجمة فيصل لسلطان عمان .

تجربـة مشبوهـة

عبد الله بن مشاري

لا يذكر «ابن بشر» شيئاً عن (عبد الله بن مشاري) ، التاجر البحراني ، الذي أرسله (محمد علي) إلى ميناء (العقير) لتحصيل الرسوم الجمركية . .

وهذا النقص أتمه لنا (بيلي ويندر)، قال: إن (أحمد باشا)، ممثل محمد علي في مكة، هو الذي أرسل هذا التاجر وأعطاه رسائل إلى الإمام فيصل وأمير البحرين وسلطان مسقط، يقول فيها إن (عبد الله) المذكور التزم زكاة (القطيف) لقاء مبلغ عشرين ألف دينار «ماريا تيريزا» ويطلب منهم أن يسهلوا مهمته . . .

صحيفة الخليج الفارسي:

وتزيد صحيفة الخليج الفارسي هذه المكيدة وضوحاً، فتقول لنا:

إن محمد علي لم يكن راضياً عما آلت إليه الأحوال في نجد، لأنه فقد كل سلطة، ولذلك اتخذ التدابير التي اعتقد أنها تعيد سلطانه على البلاد النجدية، وكانت المرحلة الأولى في هذا الطريق اختياره تاجراً بحرانيًا هو (عبد الله بن مشاري)، ليتولى تحصيل الرسوم الجمركية في ميناء العقير، وكان هذا التدبير غير مقصود لذاته، وإنما كان اختباراً يراد منه معرفة حقيقة السلطة المصرية في القطيف، وهل هي التي تتولى الأمور السياسية والمالية، أم أن أمير نجد الإمام فيصل، هو الذي يسيطر ويحكم هناك.

وكانت نتيجة الاختبار غير مرضية إطلاقاً لمحمد علي . .

ذلك أن الإمام فيصل طرد مشاري هذا من القطيف.

الإمام فيصل يستغني عن مطاردة مانعي

الزكاة بمجرد تلويحه بالقوة . .

يقول ابن بشر أن الإمام فيصل سار «بجند المسلمين من العارض والخرج والفرع والأفلاج ووادي الدواسر والقصيم والجبل والوشم وسدير وغيرهم وجميع غزو العربان، فنزل: (روضة التنهات) المعروفة عند الدهنا، وأقام فيها أكثر من شهرين، وذلك لأنه بلغه أن بعض العربان فيهم امتناع عن الزكاة، فإذا سمعوا بخروجه سمعوا وأطاعوا، فوفد عليه رؤساء العربان وأرسل إليهم عمالاً، لكل فريق عامله، فقبضوا منهم الزكاة.

وألفى عليه أخوه (جلوي) في أثناء تلك المدة، فقفل راجعاً إلى وطنه، وأذن لأهل النواحي يرجعون إلى أوطانهم».

عهد خالد سعود وخورشيد المستبد

١٢٥٢ ـ ١٢٥٤ هـ

مكيدة محمد علي للسيطرة على نجد

خالـد سعـود:

تقول (صحيفة الخليج الفارسي):

«في عام ١٨٣٦ م احتشدت قوة مصرية كبيرة في المدينة، وأصر (محمد علي) على أن ينضم (فيصل) مع رجاله إلى حملة أراد شنها ضد عسير، ولكن فيصلاً اعتذر عن ذلك بمرضه، وأوفد أخاه بدلاً منه، حاملاً معه عدداً من الجياد هدية . . . .

وكان يُعتقد يومئذ أن (فيصل) كان يرسل إلى الثائرين على المصريين في الجنوب بعض المساعدات سراً . . لذلك قرَّر محمد علي أن يخلع فيصلاً ويولي مكانه أميراً طيِّعاً في خدمته، ووقع اختياره على (خالد بن سعود)، فرفع عنه الرقابة المفروضة عليه في القاهرة، وأرسل إسماعيل بك على رأس قوة مصرية إلى نجد، وأمره أن يساعده (خالد) على تولي الحكم في نجد، حيث له، فيما يظهر، بعض الأنصار . .

ولمَّا عرف فيصل بهذا الأمر، أرسل الموفدين والرسائل إلى محمد علي باشا . . . ولكن مساعيه جاءت بعد فوات الأوان».

من هو خالد بن سعود؟

هو ابن سعود الكبير (سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود)، وكان لونه يضرب إلى السواد، لأن أمه جارية حبشية، ربَّاه (محمد علي) في مصر تربية أوروبية، وأراد استخدامه في تجزئة نجد وإخضاعها، وكان عمره حين وصل إلى نجد حوالي ٢٣ سنة، وقد عرف بالاسترسال باللهو والملذات.

قال عنه زيني دحلان:

«كان خالد من الأسرى الذين قبض عليهم إبراهيم باشا سنة ١٢٣٣ هـ وأرسلهم إلى مصر فكبر وتربى بمصر، فاستحسن محمد علي أن يجعله أميراً في بلاد آبائه، فأرسله صحبة خورشيد ورتب له المرتبات الجزيلة.. فأقام خالد في الرياض ومهد له الأمور إلى أن استقر»[١].

وقال عنه سليمان الدخيل:

«قبض على زمام الأمور ـ بعد الإمام فيصل ـ الأمير خالد بن سعود، وقد ساعدته الحكومة المصرية على نيل هذه الرتبة بما بذلت له من المال والرجال، إلا أنه لم يسلك سُنَّة آبائه في السياسة، بل سار على نهج المصريين، فأنكر عليه أهل نجد أعماله وسلوكه ونفرت منه القلوب ولم يبق شيئاً مذكوراً في نظرهم.

كانت أمه جارية حبشية ذكية فطنة جداً.

وما زال مكبًا على لهوه حتى أجمع أهل نجد على خلعه سنة ١٢٥٧ هـ ١٨٤١ م»[٢].

حركة بارعة من محمد علي؟

إرسال خالد إلى نجد

قال فيلبي في كتابه (تاريخ نجد):

«إنها لحركة بارعة من محمد علي أن يشرك معه في مشروع الإغارة على نجد شخصاً قد يعتبره النجديون الوارث الشرعي لأمجاد البيت الحاكم.

وفي أواخر سنة ١٨٣٦ م أو في بداية السنة التالية، وصل خالد هذا إلى يبع، وكان يصحبه إسماعيل آغا، القائد التركي للحملة التي قدر عددها بألفي مقاتل أما فيصل فأرسل جاسوساً مع بعض الهدايا إلى إسماعيل، وكلفه أن ينقل إليه ما ينوي القائد عمله، وبناءً على المعلومات التي نقلها الجاسوس عن تقدمه ماراً إلى الحناكية، فالقصيم، وتمشيًا مع نصيحة عبد الله بن رشيد والزعماء الآخرين الذين

---

(١) زيني دحلان: خلاصة الكلام في أمراء البيت الحرام.

(٢) مقال الدخيل في مجلة «لغة العرب» البغدادية لصاحبها أنستاس الكرملي، قبل الحرب العامة.

كانوا موجودين في الرياض آنذاك، قرر فيصل احتلال القصيم، استباقاً للعدو ولئلا يؤدي وصول إسماعيل إلى خضوع أهلها، وبعد أن أصدر أوامره إلى قواته بوجوب الاحتشاد في مكان معين يقع في الشمال، غادر الرياض في شهر آذار عن طريق (خفيسة) إلى (صريف)، وهناك علم بأن إسماعيل وخالداً قد وصل إلى الرس فانتقل إلى عنيزة، حيث انضم إليه جنودها وجيش بريدة، تحت قيادة أمرائهم في زحفهم على موقع رياض الخبرة، القريب من الرس.

وبعد مناوشات غير منتظمة ورفض سكان شنانة، الذين ذهب أمراؤهم إلى الرس للمفاوضة على شروط الاستسلام، أن يسمحوا لقوة من جيش فيصل بدخول المدينة، انسحب فيصل إلى عنيزة، وكان هذا بدء انهيار القوات السعودية».

خالد بن سعود المزيف

خالد بن سعود المزيف جاء إلى نجد قبل خالد الحقيقي:

قال ابن بشر في أخبار سنة ١٢٤٨ هـ:

«وفيها جاء رجل من مصر وادَّعى أنه خالد بن سعود، وقدم بريدة، وتزوج فيها.

وأمر الإمام (تركي) أهل البلدان بإكرامه والقيام بما ينوبه من بيت المال، فلما أقبل على الرياض، تلقاه وأكرمه.

فلما قدم الرياض عرفه أناس، يعرفون خالداً في مصر، أنه غيره، وأنه تسمَّى عليه، فهرب من الرياض إلى مصر.

وقيل: إن محمد علي، باشا مصر، قتله».

رواية ابن بشر المفصَّلة عن قدوم خالد بن سعود

قال ابن بشر في أخبار سنة ١٢٥٢ هـ:

«في هذه السنة ظهر العسكر المصري مع إسماعيل آغا، أمير لواء، وخالد بن سعود، وكان خالد انتقل من الدرعية مع آل سعود حين نقلهم إبراهيم باشا إلى مصر، فظن محمد علي، باشا مصر، أن أهل نجد يطيعون إذا رأوا (خالد)، أو أنهم يطيعون له ويصيرون تحت أمره، وأظهره مع تلك العساكر تقيةً ليتوصل به إلى مراده ومقصوده.

فسارت العساكر من مصر، وهم نحو ألفين ما بين راجل وفارس، فلما وصلوا إلى ينبع، البندر المعروف بين مصر والمدينة، بلغ خبرهم الإمام فيصل فأرسل إليهم محمد بن ناهض الحربي، رئيس قصر بسام بهدية لهم، ويستفحص خبرهم، فقدم إليهم ورجع إلى فيصل وأخبره بيقين خبرهم، ثم أنهم رحلوا من ينبع وقدموا (المدينة)، ثم رحلوا منها ونزلوا الحناكية المعروفة. فلما بلغ الإمام فيصل مسيرهم، استشار رؤساء رعيته الذين معه في المسير إليه أو عدمه، وكان الأمير عبد الله بن علي بن رشيد، رئيس جبل شمر عنده، وافق قدومه وافداً على الإمام ومعه الشيخ عبد العزيز بن عثمان بن عبد الجبار، أرسله الإمام إليهم لما أقبل الموسم قاضياً في الجبل، فأشار على فيصل بالنفير والمسير، وأنه يقصد القصيم ويقيم فيه وينزل قبل أن يقدم إليهم العساكر، فيجيبون ويتابعونهم، فيكون نزوله عندهم فيه ثبات لهم، وردة عن عدوه، فاستنفر الإمام أهل النواحي من رعيته من الأحساء والجنوب إلى ما يليه من البلدان إلى جبل شمر وما حوله من العربان، وركب من الرياض في آخر شوال، ونزل الخفيسية، الماء المعروف عند الدهناء، وأقام فيها أياماً واجتمع باقي غزواته، ثم رحل منها ونزل الصريف، الماء المعروف، قرب بلد التنومة من أرض القصيم، فأقام عليه أكثر من شهر حتى بلغه أن خالداً وإسماعيل وعساكر الترك نزلوا بلد الرس، فرحل فيصل بجنوده وقصد بلد (عنيزة) فنزلها واستنفر أهلها، فركب معه أميرها يحيى بن سليمان، ثم رحل من عنيزة واستنفر رئيس بريدة فركب معه عبد العزيز بغزوه، وسار بتلك الجنود ونزل في رياض بلد الخبرا، المعروفة بين الرس والخبرا، وذلك في أيام التشريق، فأقام في مكانه ذلك أكثر من عشرين يوماً، وهو ملازم عساكر الترك في الرس ومحارب لهم، ولم يحصل بينه وبينهم قتال ولا طلع عليه أحد منهم.

وكان فيصل كاتَبَ أهل بلد شنانة المعروفة عند الرس فطلبوا منه أن يرسل إليهم سرية تكون عندهم فأرسل إليهم مائة مطية مع زويد العبد، خادم الإمام، فرحلوا إليها بعد صلاة العشاء فلما وصلوها وجدوا أميرهم في الرس، وقال لهم أهلها: لا نقدر ندخلكم إلا بحضور الأمير! فوقع الفشل في تلك السرية، وانصرفوا إلى فيصل، فلما قدموا إليه استلحق رؤساء قومه واستشارهم في الرحيل أو المقام، فأشاروا عليه أن يأمر راحلته وزهابه وعليق خيله وجميع ثقله يرحلون ويقصدون بلد عنيزة، ثم يشن الغارة بمن معه من جنود المسلمين على بعض فرقان البدوان الذين تابعوا العسكر، ثم يرجع قافلاً إلى عنيزة أو بريدة، فأمر الإمام أهل الراحلة

بالرحيل، فلما شدت رحائلهم وشيل عليها، ظن أناس من أطراف الغزو أن القوم راحلون ومنهزمون فشالوا على رواحلهم، ووقع في المسلمين فشل، فأمر فيصل رجاله وخدامه بتسكينهم، وضرب من رحل منهم وانهزم، فقام الرجال عليهم وأدبو فيها فسكنوا عند ذلك وباتوا مكانهم. فلما كان بعد صلاة الصبح وطلعت الشمس ركب فيصل بجنوده من ذلك الموضع، ووقع بالمسلمين فشل وخفة، فثقل فيصل وفرسان قومه في ساقة جنودهم، وقصد عنيزة ونزلها، وذلك يوم الجمعة لخمس بقين من شهر ذي الحجة، فلما نزل عنيزة شاور رؤساء قومه في المقام فيها أو الرحيل، فاقتضى رأيه أن يرحل بعزيزته ويقصد بلده. . فرحل الإمام من بلد عنيزة وأذن لأهل النواحي يقصدون بلدانهم، وقصد الرياض ومعه أهل الخرج وأهل الفرع ومحمد بن قرملة رئيس قحطان وأرخص له في أرض ثادق، فلما وصل فيصل بلد الرياض نزل بخيامه وثقله وركابه خارج البلد ومعه غزو أهل الجنوب من أهل الخرج والفرع وغيره ودخل البلد على خيله برجاله، فلما دخل البلد رأى منهم ما يريبه، وجاهر منهم رجال بالعداوة، فأخذ فيصل يهيىء ما في القصر من سلاح وأمتاع وفرش ودراهم وغيرها، فدخل عليه رجال من أهل الرياض وحدث عليه منهم ما أوقع في قلبه الخوف منهم، ثم سار عليه أناس وحصلت مجاولات.

فلما رأى الإمام فيصل ذلك اقتضى رأيه السديد وعمله الرشيد أن يفت في أعضادهم بالعطاء، فبذل الدراهم لكل من حاذر منه وخاف شره، لأنه خاف منهم أن يمنعوه لا يخرج بشيء من القصر يريدونه لخالد، ومنهم من جاهره بهذا الكلام. فلما بذل لهم ذلك سكتوا عنه وتركوه، فأخرج جميع ما كان في القصر من كل غال ورخيص وحال، وجعله عند رحائله وخيامه مع غزواته أهل الجنوب، وأكثر ذلك أخرجه بخفية. فلما استكمل ما أخذه من القصر وأراد الخروج منه إلى خيامه، خاف من رجال منهم على خيله وما معه، فأرسل إلى من عند الخيام من الرجال يرحلون بجميع ما معهم، ثم خرج من القصر على خيله دفعة واحدة، ووقف رجال من أعوانه حتى خرج من البلد، فلحق بما له وأحماله مسروراً سالماً من الشرور، ومعه من الخيل نحو أربعمائة عتيق، ومن العمانيات والنجايب عدد كثير، فأنجاه الله وما له من البغاة وسلمه خالقه من الآفات، فلما وصل الخرج أقام فيه عشرة أيام. واستلحق بعض أهله وشيئاً من باقي أمتاعه، ووصلوا إليه بالسلامة ولحقه عدد رجال من خدمه وغيرهم.

ثم رحل من الخرج وقصد الأحساء، فلما وصل إليه نزل في الرقيقة المعروفة، وظهر إليه عمر بن عفيصان ورؤساء أهل الأحساء، وبايعوه على نصرته والقيام معه، وظهر ابن عفيصان من قصر الكوت المعروف ونزل فيه فيصل بعياله وأثقاله، وأقام في الأحساء آخر عاشوراء، وصفر وربيع الأول من سنة ثلاثة وخمسين، ووفد عليه رؤساء العربان من مطير والعجمان والسهول وسبيع وغيرهم. رجعنا إلى تمام قصة إسماعيل وخالد وعساكرهم ولما بلغهم رحيل فيصل من أرض الخبرا رحلوا من الرس ونزلوا الخبرا ثم رحلوا منها وقصدوا بلد عنيزة فأغلق أهلها عنه الأبواب وحاربوه، ثم وقع بينهم الصلح وخرج إليهم يحيى ورؤساء بلده، ثم ركب إليهم رئيس بريدة عبد العزيز وتابعهم، ثم تابعهم بقية بلدان القصيم».

بعد ظهور خالد وإسماعيل

نصيحة الشيخ عبد الرحمن للإمام فيصل

تحدث الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن عبد الوهاب في رسالة نشرت في كتاب (الدرر السنية في الأجوبة النجدية) عن نصيحة أسداها للإمام فيصل، الذي استشاره في الغزو أو الإقامة في الرياض بعد ظهور خالد وإسماعيل، وما أعقب ذلك، وهذا ما جاء فيها:

استشارنا (فيصل) رحمه الله في الغزو والإقامة، فأشرت أن اخرج بالمسلمين، ويكون في (البطينيات) من (الدجاني) إلى ما دونه، وينزل قريباً من العربان لأن أكثر رعيهم من الدهناء ويؤلف كبارهم بالزاد، وينقل البر من سدير والوشم، وزاد الأحساء والقطيف من تمر وعيش، ويقرب كبار العربان منه بالزاد، وكذلك من معه من المسلمين، ويصير له رجال في القصيم عند من ثبت وينتظر، فلو ساعد القدر وتم هذا الرأي لم يقدر العسكر أن يتعدى القصيم للوشم والعارض وخافوا من قطع سابلتهم ولا لهم قدرة على حرب فيصل وهو في ذلك المكان، فلو قدرنا أن بعض عساكرهم يريد أن يقصده هلكوا من الدهناء والصمان إذا ماج عن وجوههم يوماً أو يومين، فلو قدر أن يفعل هذا الرأي لما ظفروا به ولا وصلوا إلى بلده لأسباب معروفة.

لكن لما أراد الله سبحانه صيانة أهل الرياض في الإمام فيصل، وهم معه في

الصريف، قدم الرياض وتركها لهم[1] خوفاً منهم، فساروا على الفرع هم والذين معه من البادية والحاضرة، وصار هلاكهم أن هجموا على الحلوة على غفلة. وأخلى أهل الحلوة البلد لهم، وأراد الله أن تركي الهزاني وبعض أهل الحوطة يغيرون عليهم وكسر الله تلك العساكر العظيمة في ما بين قتل وهلاك، وصاروا يتتبعونهم موتى تحت الشجر، يأخذون السلاح والمال، والذي أغار عليهم ما يجيء عشير معشارهم فصارت آية عظيمة، ورجع أقلهم إلى الرياض وساعدهم من ساعدهم. والله حسيبهم، وتصلبوا إلى أن جاءهم (خورشيد) مدداً، ونزل (فيصل) الدلم، وأشير عليه أنه ما يقعد به ويتحصن بمن معه من المسلمين في بعض الشعاب التي بين الحوطة ونعام ويجعل ثقله وراءه. فإن حصل منهم عسير جاهدهم بأهل تلك القرى، ولا أراد الله أن يفعل ذلك. فلما تمكنوا من (فيصل) وأخذوه أرسلوه إلى مصر، صار عسكرهم في ذهاب وعذاب وفساد فأوقع الله الحرب بين السلطان ومحمد علي، ورد الله الكرة لأهل نجد فرجعوا كما كانوا أولاً على ما كانوا عليه قبل حرب هذه الدولة، كما قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾، فنسأل الله أن يمنَّ علينا بالإحسان وينفي عنا أسباب التغيرات إنه وليُّه وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والمقصود بما ذكرنا هو الاعتبار بأن الله حفظ هذا الدين ومن تمسك به وأيّدهم بالنصر على ضعفهم وقلتهم، وأوقع بأسه بهذه الدول على قوتهم وكثرتهم وأسباب كيدهم، ثم إن الله تعالى أهلك تلك الدول بما جرى عليهم من حرب النصارى في بلد الروم، فكل دولة سارت إلى نجد والحجاز لم يبق منهم اليوم غير عين تطرف، وكان عددهم لا يحصيه إلا الله تعالى فهلكوا في حرب النصارى فصارت العاقبة والظهور لمن جاهدهم في الله من الموحدين الخ . . .

---

(١) مما يلفت النظر أن ابن بشر يقول أن الشيخ عبد العزيز بن عثمان بن عبد الجبار هو الذي أشار على الإمام فيصل بمغادرة الرياض إلى القصيم، وليس ما يمنع أن تأتي المشورة من اثنين.

حاكم بغداد العثماني يعرض على فيصل مساعدته ماليًّا وعسكريًّا.. لارتباط فيصل بالخليفة العثماني!

في ١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٣٧ م أرسل علي باشا، حاكم بغداد العثماني، الرسالة الآتية إلى فيصل:

«لم أتلق أخباراً منكم، منذ وقت طويل، لكن عرفت بعزلكم، وأن خالد سعود قد هاجمكم، وأنه اجتاح المقاطعات التي تحكمونها.

إنني أرجو الله أن ينصركم على أعدائكم، وبما أنني أعلم أنكم مرتبطون بالباب العالي بحكم الواجب، وأنكم مهتمون بحمايته، ولذلك فأنا لا أفتأ أعرب عن التمنيات لسعادتكم والسؤال عن أخباركم، وأنا أتمنى أن تقدّموا خدمة إلى الباب العالي بدفاعكم ضد العدو عن البلاد الخاضعة لكم، ومع أنني واثق من قوتكم وجدارتكم فأنا أرغب أن تطلعوني على ما يجري عندكم، وعند الحاجة أقدم لكم المعونة في الوقت المناسب لأجل نجاح مشاريعكم الكامل، وبذلك تقومون بواجبكم نحو الباب العالي»[١].

عجز حاكم بغداد ورجاله عن مساعدة فيصل

تناول الأستاذ عبد العزيز سليمان نوار، في كتابه: «تاريخ العراق الحديث» طبع القاهرة سنة ١٩٦٨ م، موضوع مجيء الأمير خالد بن سعود إلى نجد

---

(١) هذه الرسالة تدل على أن الأتراك لا يريدون احتلال نجد، وأن (محمد علي) حاكم مصر هو الذي أراد احتلالها لحسابه الخاص، وقد وصلت هذه الرسالة إلى أيدي المصريين، وفهموا منها تماماً أن الأتراك يتدخلون في الجزيرة العربية ضد محمد علي.

وتصميم حاكم بغداد «الكلامي» على مساعدة الإمام فيصل، وعجزه عن ذلك عسكريًا، وموقف «تركجه بيلمز» قبطان البصرة العاجز عن المساعدة أيضاً، ومما قاله:

كان من مصلحة الباب العالي أن يخضد شوكة القوات المصرية في أية جبهة من الجبهات، ولذلك عندما شنَّ خورشيد هجومه على نجد لم يصادف في هذه المرة مقاومة عسكرية من جانب آل سعود فقط وإنما دخل (علي رضا) الميدان بصورة غير مباشرة أيضاً.

فقد بعث علي رضا برسالة إلى فيصل بن تركي يقول له فيها:

«إنك لمن المنتمين إلى جانب الدولة العلية... وإننا نكره المزاحمة لك على الديار.. وإن... لم تطق لرد العدو ومنعه... أفدنا عما يناسب حالك وفيه تقويتك ونجاح أمورك ومصلحتك وتجزم بحقك ألطاف الدولة العلية وزيادة مودتنا لك».

واستغل علي رضا ما بين عرب العراق وعرب الجزيرة العربية من أواصر القربى والعصبية النجدية بأن أوعز إلى سليمان الغنام ـ شيخ عشيرة العقيل ـ أن يحثَّ فيصلاً على مكاتبة حكومة بغداد وعلى إعلان الطاعة للسلطان، كما أوحى إلى عبد الله الفداغ ـ أحد شيوخ العرب ـ بأن يبعث برسالة لفيصل جاء فيها:

«إن أفندينا (علي رضا باشا) يود النصر وأرسل لك طارشاً على طريق الكويت، ووعده عبد الله الفداغ بفرمانات تقرأ بين الحضر والبدو ومكة.. والمدينة.. بأنكم طوارف الدولة حتى ترتفع عنكم مواد محمد علي باشا».

علم خورشيد بأمر تلك المكاتبات التي بعث بها علي رضا ورجاله إلى فيصل وطلب منه أن يبعث بها إليه فأرسلها مشفوعة برسالة برَّر فيها علاقته بحكومة بغداد بأن علي رضا كفَّ عنه أذى عشائر المنتفق والضفير، وقال إنه «بهذا السبب يا أفندينا حصلت الصداقة بيننا وبينه» ونفى دخوله تحت طاعة والي العراق نفياً باتاً، وبدا من رسالته أنه كان يرجو أن يمنحه خورشيد فرصة للتفرغ لضرب عشائر الضفير والمنتفق.

ويتحدث المؤلف عن تراجع فيصل إلى آخر معقل لديه، وهو مدينة (الدلم)

التي شحنها «بالرجال والعتاد وصمم على أن يخوض من وراء أسوارها المعركة الأخيرة».

طلب النجدة من بيلمز:

وطلب فيصل النجدة من «تركجه بيلمز» الذي كان استولى على شطر من اليمن، ثم انتقل إلى البصرة وأعلن ولاءه لفيصل، ولكنه لم يصنع شيئاً من أجله، مكتفياً بحلو الكلام..

وفي ذلك يقول الأستاذ نوار: «بعث فيصل كتاباً إلى (تركي بيلمز)، قبطان البصرة وعدو خورشيد اللدود، طالباً النجدة، وحذَّر القبطان من مغبة التقاعس عن نجدته في هذه الأزمة، وأن سقوط الدلم سيفتح الطريق أمام القوات المصرية لاحتلال الأحساء والبصرة.

ولم يكن هناك تحت يد تركجه بيلمز ما يمكن أن يرسله إلى فيصل، فاعتمد على الأساليب المنمقة وكلمات التشجيع، وترك فيصلاً لمصيره أمام خورشيد»..

ماذا يستطيع فيصل عمله أمام تكاثر القوى المتآلبة عليه؟

وتساءل مؤلف تاريخ العراق الحديث عما يمكن لفيصل أن يفعله، بعد تعاظم القوى التي احتشدت ضده مع خورشيد وخالد، فقال إن الظروف وضعت فيصل بين أمرين:

١ ـ أن يخضع للقوة المصرية، فيتخلى بالتالي عن الإمامة والوهابية فيفقد مكانته بين عرب نجد ويمنح الفرصة لأي منافس آخر ليتغلب عليه، خاصة وأنه في هذه الحالة يصبح في مكانة أقل من مكانة خالد بن سعود، المتعاون كل التعاون مع حملة خورشيد والمرشح لتولي الحكم مكان فيصل.

٢ ـ أن يقوم بالحملة دون معاونة بغداد، حيث كان الخضوع لأية قوة عثمانية معناه أن الحركة الوهابية فقدت عنصراً جوهرياً من العناصر التي تعتمد عليها، وهو الطابع العربي النجدي.

ولقد حاول فيصل أن يتبع طريقاً وسطاً، فاعتمد على نفسه في مقاومة حملة خورشيد. وعندما شعر خورشيد أن (فيصل) قرر الاستمرار في حكم نجد، أنذره بأن ينسحب من الرياض والعودة إلى الأحساء، وشرع خورشيد في الزحف نحو الخليج العربي.

وكان طبيعيًا أن يتعاون خورشيد مع القوى العربية الراغبة في التخلص من الحكم العثماني مثل (بنو خالد) فغادر العراق محمد بن عريعر وثبت أقدامه في الأحساء وأعلن تبعيته للحكم المصري .

حوادث سنة ١٢٥٣ هـ

قال ابن بشر:

«دخلت السنة الثالثة والخمسون بعد المائتين والألف، وخالد وعساكر الترك في بلد عنيزة، فأمر إسماعيل وخالد على يحيى بن سليمان ورجاله معه يركبون إلى بلد شمر مع عيسى بن علي رئيس الجبل القديم، وركب معه من الترك إبراهيم المعاون بأربعمائة فارس والغزوان الذي مع يحيى مائة مطية يريدون أن يبتغوا عبد الله بن رشيد في بلده ويمسكوه فسبقهم النذير إليه، وهرب من حائل قبل قدومهم، فدخل ابن علي الجبل ونزل قصر أهله ومعه الغزو والعسكر، وهرب أناس من الجبل، وأخذ منهم (المعاون) دراهم. .

ولما استقر عيسى بن علي في الجبل أقبل المعاون ويحيى سليمان ومن كان معهم وأبقوا عند عيسى مائة رجل من عسكر الترك.

ثم قدم على إسماعيل وخالد رؤساء أهل الرياض في عنيزة وأطاعت لهم نجد كلها، سوى أهل الخرج والفرع ومن والاهم من أهل الجنوب. وبعث إسماعيل وخالد عمالاً من عسكرهم يخرصون ثمار أهل القصيم، وأما غير أهل القصيم فخرص ثمارهم رجال من بلادهم.

الاستيلاء على الرياض:

فلما كان في آخر عاشوراء من هذه السنة رحل إسماعيل وخالد وعساكر الترك من عنيزة، وقصدوا الرياض ودخلوها يوم السبت سابع صفر، ودخل خالد وإسماعيل القصر واستوطنوه، ووُجِد فيه كثير من التمر والبر، ونزل باقي العسكر خارج الرياض، وقدم عليهم رؤساء البلدان وتابعوهم.

وأرسلوا إلى الهزاني ورؤساء أهل الحوطة يطلبون منهم المتابعة والقدوم

إليهم فأبوا عليهم، وكتبوا لخالد: إن كان الأمر لك ولا يأتينا في ناحيتنا عسكر من الترك فنحن رعية لكم، وإن كان الأمر للترك فنحن لهم محاربون.

فغضب إسماعيل وأتباعه، وقالوا لا نرضى إلا بقتل أهل هذه الناحية ونهب أموالهم.

ثم أمر إسماعيل على الحدّادين يعملون الفؤوس والفواريع، وأمر بالتجهز بالمسير إليهم.

وكتب خالد إلى النواحي من سدير والوشم والمحمل وبلدان العارض. وأمرهم بالنفير والمسير لقتال أهل هذه الناحية، واستعمل في سدير أميراً أحمد بن محمد السديري، وكان أحمد رجلاً عاقلاً سمحاً جواداً محبوباً عند الرؤساء وغيرهم، فسار غزو أهل الوشم مع أميرهم محمد بن عبد الكريم البواردي، كذلك غزو أهل المحمل مع حمد بن مبارك، وركب إليه غزو بلدان العارض، ولم يتخلف عنهم إلا أحمد السديري لأن بلدان سدير فيها قحط، وعاملهم بالرفق فلم يلحقهم إلا بعدما انقضى الأمر وهلك العسكر.

ثم إن خالد استنفر أهل الرياض وحاشيته من الخدام نحو أربعمائة رجل. فركب من الرياض هو وإسماعيل ومن تبعهم من الترك والعرب، وذلك في أول ربيع الآخر، فلما وصلوا إلى بلدان الخرج استنفروهم للغزو، فركب معهم فهد بن عفيصان بغزو بلدانه، فلما وصلوا الماء المعروف بالخفس اجتمعوا للمشورة. وكان بينهم وبين الماء نحو يومين، فقال لهم إبراهيم المعاون التركي: اجمعوا الغراير واملأوها تبناً وعشباً وتراباً واقصدوا بلد الحوطة، وادفنوا حفرهم، وكروا عليهم كرة واحدة، حتى تنزلوا نخيلهم وتشربوا من مائهم، وكان مضف المريخي رئيس عربان بريدة معهم، فقال لهم: اقصدوا بلد الحلوة وأدهموا أهلها وأخرجوهم منها، ثم انزلوها واشربوا من الماء وكلوا من التمر وأطعموا الخيل، فإذا ملكتموها كاتبكم من كان سراً لكم في الحوطة والحريق وأتى إليكم، فأجمعوا رأيهم على ذلك، فرحلت تلك الجنود من الخفس قيل إنهم نحو من سبعة آلاف مقاتل من الترك والعرب، فقصدوا بلدة الحلوة، وكان أهل الحلوة قد أخرجوا نساءهم وأبناءهم وأدخلوهم بلد الحوطة، فسارت تلك الجنود وأعماهم الله سبحانه عن الطريق السمح لهم، وفيه مشقة على عدوهم، وساروا مع طريق آخر، ونزلوا في حرة، قرب البلد».

هزيمة عظيمة للعسكر لم يعرف لها نظير:

وتحدث ابن بشر عن معركة هائلة حدثت بين أهل الحريق بقيادة زعيمهم تركي الهزاني، وأهل الحوطة بزعامة الفارس الشجاع إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم، رئيس آل سعود، وفواز بن محمد رئيس آل مرشد، وأهل نعام مع رئيسهم زيد بن هلال ورئيس الحلوة عمر بن خريف، من جهة، وبين عسكر الترك من جهة ثانية. وكان المقاتلون النجديون يأتمرون بأمر آل الشيخ الذين هربوا من الرياض ونزلوا عندهم.

ويقول ابن بشر: إن أهل الحلوة كانوا أول من قاتل، فقد صعدوا الجبل وقاتلوا العسكر قتالاً عنيفاً قتل فيه عدد من أهل الحلوة، ثم أقبل «تركي الهزاني بجمع عظيم، وقصد ميمنة العسكر وفيها الخيالة والفرسان. وأقبل الفارس الشجاع إبراهيم بن عبد الله بجموع معه من أهل الحوطة وقصد مسيرتهم، وهم في رأس الجبل وفيه المدافع والعساكر، وسار أهل الحلوة ومن معهم على من في البلد الذين دخلوها لما حصلت الهزيمة، فلم تقف تلك الجنود إلا وسط عدوهم، فحصل بينهم قتال شديد يشيب من هوله الوليد، واستولى إبراهيم وأتباعه على المدافع وجروها ورموها من رأس الجبل، فنزل النصر من السماء، وأول من انهزم الأعراب الذين مع العسكر. ثم وقعت الهزيمة العظيمة التي ما وقع لها نظير في القرون السالفة ولا في الخلوف الخالفة، على عساكر الترك وأعوانهم، وهلكت تلك الجنود ما بين قتل وظمأ.

وذكر لي أن الرجل من القرابة الذين ليس لهم خيل ولا ينهزم أكثر من رمية بندق، ولم ينج واحد منهم، وتفرقت الخيالة في الشعاب، فهلكوا فيها ليس لهم دليل، ولا يهتدون إلى السبيل، ونجا خالد بنفسه ومن معه من أهل نجد، لما رأوا الهزيمة انهزموا وحدهم، وتركوا عساكرهم وجندهم، وتزبن إسماعيل والمعاون وشرذمة معهم من الخيالة هزيمة خالد، فاجتمعوا به وساروا معه، وهربت الأعراب على رحايل العساكر وتركوا جميع محلتهم وأمتعتهم، فغنم أهل الحوطة والحريق وأتباعهم جميع ما معهم من الأموال والسلاح والخيام، وفيها من الذهب والفضة ما ليس له نظير».

خالد وإسماعيل يهربان ويرجعان إلى الرياض:

«ثم إن خالد وإسماعيل وأتباعهم وصلوا من الدلم وقصدوا الرياض ودخلوها.

قيل: إن الذين نجوا من الخيالة الذين كانوا مع إسماعيل قريب من مائتين، دخلوا معه الرياض، وكان قد أبقى في الرياض، لمّا خرج إلى الحوطة، أكثر من مائتين من المغاربة والترك في القصر».

الإمام فيصل يتجهز لاستعادة الرياض:

«فلما وصل فيصل خبر هزيمة العسكر وقتلهم، وهو في الأحساء، عزم على الظهور إلى الرياض ومحاربة عدوه، فقام يجهز الناس للخروج، وأمر أهل الأحساء بالتحمل معه للغزو، فخرج من الأحساء بعدده وعدته ورجاله وأعوانه، وكان معه من رجال عشيرته وخدّامه، هربوا معه من الرياض لما ظهر منه.

فلما وصل بلدان الخرج أمر أهلها بالنفير معه، واستلحق أهل الحريق والحوطة والفرع ونفروا معه، وأقبل معهم الشيخ القاضي عبد الرحمن بن حسن. ثم رحل من الخرج وقصد الرياض، فلما أقبل على المصانع المعروفة عند الرياض ظهر عليه خالد وأهل الرياض وعساكر الترك فحصل قتال شديد بين الفئتين، وكان فيصل قد جعل أهل النجدة من قومه كميناً، فلما نشبت الحرب بين الفئتين ظهر عليهم الكمين، فولوا منهزمين وجنود فيصل في ساقتهم، وقتل منهم قتلى كثيرة من العسكر وأهل الرياض، وانهزم من أهل الرياض في تلك الهزيمة نحو من مائتي رجل ومعهم عدد من عسكر الترك أعجلهم المسلمون عن دخول الرياض، فدخلوا منفوحة فحصرهم فيصل فيها، وطلبوا منه الأمان عليهم وعلى أهل بلد منفوحة ومن عندهم من الترك، فأعطاهم الأمان وخرجوا إليه، وأصلح أهل البلد وبايعوه، ونزل فيصل وجنوده عند الرياض، ولازم سورها واستدارت عليها جنوده، وبنوا محاجيهم قبالة المرابيع والسور، ونزلوا دور النخيل وأخذوا ما على الركايا من الأخشاب، وذلك أول يوم من جمادى الآخرة.

ثم إن الإمام فيصل استلحق غزوان أهل سدير والمحمل، فحشدوا عليه مع رؤسائهم وقضاتهم. ثم إن خالد وأعوانه احتصروا في حلة البلد وسدوا بيبانها بالطين، ورتبوا أهل الرياض ومقاتلتهم في وسط البلد، فجعلوا في كل مربعة خمسة وثلاثين رجلاً، وبين كل مربعتين موقفاً فيه خمسة رجال بالبنادق، وعند كل باب من بيبان الرياض آغا من الترك جالساً عنده، وهو رئيس أهل المرابيع الذين حوله، وجعلوا لكل آغا من هؤلاء له وقت من الليل معلوم يدور فيه على أهل المرابيع، يوقظهم ويحضهم على حفظ مكانهم إلى الصبح، وصار المعاون ورجال من أهل

الرياض ومن الترك يدورون معه في الليل على أهل المواقف والمرابيع إلى الصبح، وكل يومين أو ثلاثة يبدلون أهل كل ناحية من المرابيع في ناحية أخرى، وينقل أهل الناحية الأخرى إلى مكانهم، وينقلون الأغوات من البيبان على هذه الحال. وذلك خوفاً من وقوع خيانة لفيصل من أهل المرابيع الترك والعرب. واستمروا على ذلك يجعلون هؤلاء وهؤلاء في مكان هؤلاء، ولا يجعلون لأحد من أهل المرابيع وقتاً معلوماً يصيرون فيه، بل إذا خرج أناس من موضوع يقصدونه. لا يدرون أن يقصدون، حتى يقال لهم اقصدوا الموقع الفلاني، فثبت أهل الرياض هذه المدة الطويلة، وعلى كثرة ما مع فيصل من الجنود وعلى كثرة محبتهم له وحسن سيرته وعفافه وكفافه وعطائه لهم، وما عندهم من الترك والمغاربة وأهل العداوة والبغضاء لهم، ولكن كل شيء له أسباب ولكل أجل كتاب.

حصار الرياض:

.. وقطع فيصل السبل عنهم، فلا يدخل عليهم في الرياض كثير ولا قليل، وغلت القهوة عندهم، حتى قيل إن الصاع منها بيع بثمانية عشر ريالاً، وغلا اللحم إلى حد الغاية، وأكلوا ما في البلد من الأغنام والإبل والبقر وأكلوا كثيراً من حصن العسكر، وأما التمر والبر فموجود على خمسة أصواع بالريال. وحصل وقائع عديدة قبل سدهم البيبان، ولكن خالداً ورؤساء الترك أمروا بهدم بيوت الذين ظهروا مع فيصل فهدمت بيوتهم وأوقدوا بخشبها.

فلما كان في أثناء هذا الحرب ضاقت صدور أهل الرياض من كثرة ما عندهم من الناس الذين ليس لهم بهم نفع في حربهم من أهل بلدهم، ففتحوا لهم باب البلد وأخرجوهم منها، واستمرت ذلك الحرب على هذه الحال كل من الفريقين في شدة وحرب وصبر إلى سابع شعبان، فرأى الإمام أن صدور المسلمين قد ضاقت من ملازمة البلد ومصابرة أهلها، فجمعهم الإمام، متع الله به، فاجتمعوا عنده كل أهل المشورة، فشاورهم فأجمع رأيهم أنهم يعلقون السلالم على البلد، وينزلون فيها والسالم سالم والعاطب عاطب، فلما أمر فيصل، متع الله به، على من معه من الجنود من أهل العارض والأفلاج والفرع والخرج والمحمل وسدير أن يحملوا على السور بالسلالم، فحملوا عليه وقت صلاة الفجر، وكل أهل ناحية علقوا سلمهم على ما يليهم من جهتهم، وصعدوا إلى أعلى السور وصاروا يهدمون فيه، وحصل عليهم رمي من أهل المرابيع، ثم تراجع أهل الرياض وحصل فيه ضجة عظيمة،

وفزعوا من كل جانب وحصل صريخ وتنادب، وحصل في رأس السور ضرب بالبنادق والسيوف، فنزلت تلك الجنود عن السور ورجعوا إلى مكانهم، وقتل منهم عدة رجال، فلما صارت هذه الوقعة أقبل فهيد الصيفي رئيس سبيع ومعه عربان سبيع ورؤساؤهم فزعاً لخالد وأتباعه ومحارباً لفيصل، فنزل على بنبان المعروف واستلحق باقي عربانه وحشد معه قاسي بن عضيب وعربانه من قحطان، ثم أقبلوا وشنوا الغارة على فيصل وجنوده يريدون أن يخف عن الرياض ويرحل عنه، فراسلهم فيصل فلم ينجح ذلك فيه، فلما كان آخر الليل ثاني عشر شعبان رحل فيصل من عند الرياض، ونزل عند منفوحة».

محاولـة فاشلـة

اجتماع فيصل وخالد للصلح

ثم حصل بين خالد وفيصل مراسلة ومحاولة صلح.

فلما كان سابع عشر من هذا الشهر خرج خالد من الرياض وظهر إليه فيصل، وتوافيا بين البلدين، وجلسا من صلاة الظهر إلى بعد العصر، فلم ينعقد بينهما صلح لأن أهل نجد لا يرضون بولاية الترك، ولا أتباعهم.

و «في أواخر رمضان أقبل ابن عمران السبيعي من القصيم ومعه خمسة عشرة مطية عليها رجال من قومه وقوم خالد درَّبهم، ودخلوا الرياض واستمروا فيها قريب ستة أيام، فتشاور خالد وإسماعيل وأعوانهم في الأمر الذي يأتي إليهم بالعسكر من القصيم ويكون مدداً لهم، وكان هذا العسكر أقبل لهم مدد، فتحيّر في القصيم خوفاً من فيصل وجنوده، فقطعوا رأيهم على ظهور إبراهيم المعاون مع أولئك الجنود، ويرحل معه الصيفي بعربانه، ويشيل العسكر ويقبل بهم، فظهروا من الرياض وقصدوا عربانهم، ورحل معهم الصيفي حتى وصل أرض القصيم.

قدوم الشريف عبد الله مع خورشيد باشا

طلب من فيصل الرحيل عن الرياض

ووعده بتقريره في ملكه دون منازع

ويقول ابن بشر إن الأخبار جاءت بقدوم خورشيد باشا مع الشريف عبد الله، صاحب ينبع ومعه هدايا ومراسلات وخدايع . . .

وقد أقبل «الشريف من القصيم منتصف شوال، فقدم على فيصل في منفوحة بالهدية، وقام الشريف يتودد إليه ويعده ويمنيه..

وطلب من فيصل أن يمتنع عن محاربة المصريين، ويخلي لهم مدينة الرياض والقصيم، ولقاء ذلك يقرونه في ملكه في سائر بلاد نجد».

ويقول ابن سند إن والده وفد على الإمام فيصل سفيراً من طرف أمير مكة الشريف عبد الله «لينصحه في إرسال الخراج، فلما وصل والدي إلى فيصل أكرم نزله ولاقاه بغاية التكريم والتبجيل، فحذره والدي سطوة الدولة العلية إذا التفت إلى أحد، وأنه لا يغتر من سكوتها ومن حلمها، فلعله تنوَّر بتلك المواعظ، فإنه أرسل الخراج المترتب عليه».

ويقول ابن بشر:

«يبدو أن فيصلاً اقتنع بأقوال الشريف، فرحل من منفوحة في أول ذي القعدة واستظهر جميع ما له في الرياض من خزائن وغيرها، وأذن لأهل النواحي من أهل سدير والمحمل والوشم يقصدون بلادهم.

وقصد فيصل الخرج ونزل بلد الدلم ومعه أهل الفرع وعمر بن عفيصان وأتباعه ومحمد بن عبد الله بن جلاجل ورجال من رؤساء المسلمين».

نقض العهود:

ويردف ابن بشير قائلاً: إن فيصلاً نزل الدلم، وأرسل أخاه جلوي إلى خورشيد باشا، وهو في المدينة، حاملاً هدية من العمانيات والخيل، وأقبل جلوي مع خورشيد إلى القصيم.

«ولما استقر الإمام فيصل في بلد الدلم، أمر عمر بن عفيصان يقصد الأحساء، وأرسل معه رجالاً من جنوده».

كما أرسل أميراً إلى الأفلاج وآخر إلى وادي الدواسر.

حوادث سنة ١٢٥٤ هـ

قال ابن بشر:

«فيها قدم الرياض عسكر من القصيم أقبل من عند خورشيد، رئيسهم كردي يقال له سليمان، وحسن معاون، فلما قدموا الرياض أمروا على إسماعيل يظهر منها بعساكره إلى مصر، فرحل إسماعيل بجميع ما معه من العسكر وذرية العسكر المقتولين في الحوطة وأمتاعهم ونسائهم وغير ذلك، وسار معه حسن معاون المذكور، وقدموا القصيم، ثم رحلوا إلى مصر.

وفي آخر صفر أقبل خورشيد باشا من الحناكية بعساكره ومعه جلوي بن تركي، ونزل بلد عنيزة فتابعوه، ووفد عليه أمراء بلدان القصيم وكثير من رؤساء العربان، فلما كان في أول ربيع الأول ثارت الحرب بين أهل عنيزة وعسكر خورشيد وسبب ذلك أنه سرق لخورشيد عمانيتان من الركايب، فقيل له إن أناساً من الحرامية عند العسكر في النهار يسألون، وفي الليل يسرقون، فجعل خورشيد حرساً يدورون بالليل خارج العسكر فأمسكوا رجلاً من أهل عنيزة خارجاً من البلد إلى نخله في الليل، فقال لهم: أنا من أهل هذا البلد وأنا ظاهر إلى نخلي، فمشوا معه إلى نخله، فلما أقبل على نخله طلب الكلام مع أبيه فجاء أبوه، فأمسكهما العسكر وعدوا بهما إلى ناحية العسكر وذبحوهما، ونقلوهما إلى النفوذ المقابل للبلد ودفنوهما فيه، فلما أصبح أهل النخل ولم يأتِ إليهم أبوهم ولا أخوهم، تبعوا أثرهم فوجدوهم مدفونين فأخرجوهم، فقال يحيى أمير عنيزة: إرموهم عند خيمة خورشيد!

وظهر يحيى من البلد وقصد خورشيد في خيمته فلما أراد الدخول عليه أخذ قواويس الباشا سيفه، على العادة أنه لا يدخل عليه أحد بسلاح، فهرب خادم يحيى الذي معه إلى البلدة، وقال: أميركم قُتل!

وكان جملة العسكر في وسط البلد يبيعون ويشترون، فنهض عليهم أهل البلد

وقتلوا كل من وجدوا منهم، إلا رجل دخل بيتاً أو دكاناً فأخفاه صاحبه. فسمع الباشا الصيحة في البلد، فقال ليحيى: إن بلدكم حدث فيها (شمطة)!

وغمض رجل ليحيى فرمى عباءته وهرب إلى البلد، فعارضه في طريقه رجال من العسكر هاربين منها، وهو في شدة الركض فرموه بالبنادق. فسلمه الله تعلى منهم ودخل البلد، فإذا قد قُتِل فيها تسعون رجلاً، ثم نهضت العساكر على الحشاشين والحطابين والحطاطيب في من كان خارج البلد فقتلوهم وحصروا أهل (قصر الضبط)، المعروف خارج عنيزة، وقتلوا أهله كلهم، وهم نحو خمسين رجلاً، ونهبوا ما في قصرهم.

ثم ثارت الحرب بين أهل البلد والعسكر نحو ثلاثة أيام، ثم وقع الصلح بينهم، فلبث خورشيد في عنيزة خمسة أشهر، وفي مدة مقامه وفد عليه عبد الله بن علي بن رشيد، رئيس جبل شمر من جهة الإمام فيصل، فأعطاه الباشا وكساه وأكرمه (... وأصبح من رجال خورشيد..).

وأما (جلوي) أخو الإمام فيصل فقد استطاع الهرب، لمّا تحقق من قيام خورشيد بمحاربة أخيه، ووصل سالماً إلى الدلم».

المعارك بين فيصل والعساكر المصرية كما يرويها خورشيد

ترجمة تقرير خورشيد باشا المكتوب باللغة التركية والمؤرخ في ٤ ربيع الأول عام ١٢٥٤ هـ - مدينة عنيزة - ومرسل إلى حسين باشا، الضابط المرافق لمحمد علي، خديوي مصر.

ترجمة التقرير

. . . بعد أن أرسلت إلى المدينة عدداً من شيوخ القبائل الذين جاؤوا إليّ في (الحناكية) لتقديم خضوعهم في ٣ صفر، سرت إلى القصيم ومعي كتيبتان من فرقة المشاة ١٥ وكوكبة من الفرسان يقودها حسين ناجي، وعدد من رجال المدفعية بمدافعهم.

وفي ١٦ صفر عسكرنا في (الرس)، في مكان لطيف، وطلبنا من الفرقة غير النظامية الموجودة هناك تحت قيادة بكر آغا، أن تنضم إلينا، ثم استأنفنا السير في ١٨ من الشهر.

جاء إلينا أمير القصيم الكبير، عبد العزيز، ومعه أمراء البلاد ووجهاؤها، وقاموا في معسكرنا بإعلان خضوعهم، ولكن (يحيى) - شيخ عنيزة -، الذي كان رفض الخضوع من قبل، لم يجرؤ على الظهور وأرسل ولده، فجاء هذا إلى معسكرنا في (غدير) على بعد ميلين من عنيزة، فرفضت استقباله، وخشي والده عواقب هذا الرفض فجاء بنفسه ومعه أعيان البلدة إلى معسكرنا، وعاهدنا على الطاعة لكل أوامرنا التي نصدرها إليه.

في ٢٠ صفر أقمنا معسكرنا تحت أسوار عنيزة، ولكن حدث في اليوم الثالث حادث مؤسف اضطرنا إلى حمل السلاح، فقد تشاجر عسكري تركي مع بدوي وقتله، فانتقم له الأهالي بتقطيع العسكري التركي قطعاً بسيوفهم، فنشب على أثر

ذلك قتال بين الأهلين والجنود القلائل الموجودين في البلدة، وسقط من الفريقين عشرة قتلى وطرد الأهالي عسكرنا من البلدة وأغلقوا أبوابها وتظاهروا بأسلحتهم خلف التماريس . . .

لم أنتظر . . طوقت البلدة وضربتها بالمدافع نهارين وليلتين، فسقط السور وتداعت الحصون، ثم أعددت الجنود للهجوم، فلما رأى الأهلون استحالة المقاومة أرسلوا إليَّ كتاباً يطلبون فيه العفو ويعتذرون . . .

في هذه العملية فقدنا ١٢ قتيلاً وأصيب ١٨ جندياً بجراح خفيفة. وأما الأهلون فقد فقدوا في خرجاتهم من السور ٢٠٠ قتيل وجرح مثل هذا العدد داخل أسوار المدينة .

عنيزة بلدة تجارية يأتيها تجار من الشام وبغداد، وستكون مفيدة جداً للجيش، لذلك تمسكت بها، وتقبلت خضوع أهلها قبولاً حسناً .

وصلت إلى هنا منذ قليل، فلا أستطيع وصف البلاد بدقة، وأكتفي بالقول إنه في كل يوم يحضر شيوخ القرى والبلدان والعشائر لتقديم خضوعهم وعرض خدماتهم .

وعندما تصل جمال الشيخ محمد الدويش والعشائر الأخرى، سأرسلها إلى المدينة المنورة لتجلب إلينا جنوداً ومؤناً . . .

تقرير خورشيد باشا، قائد الجيوش المصرية في نجد المكتوب باللغة الفرنسية

كتب التقرير في مدينة الدلم، بتاريخ ١٤ شوال/ ٣١ كانون الأول.

ترجمة التقرير(١)

«غادرت عنيزة في ١٩ رجب/٨ تشرين الأول، وفي آخر الشهر وصلت إلى الرياض، وهناك عرفت أن فيصل بن تركي موجود في إقليم الخرج.

وفي ٤ شعبان/٢٣ أكتوبر، ذهبت إلى الحائر، على رأس كتيبتين من المشاة النظاميتين ومعهم ستمائة وعشرون مقاتلاً غير نظامي وثلاثمائة وثمانون فارساً من الترك والعرب.

كان فيصل آل سعود قد انسحب إلى الدلم، مكان إقامته المعتادة وعززها بمدفعي هاون وقطعتين من مدفعية الميدان.

وفي ١٦ شعبان/ ٥ تشرين الثاني صباحاً، تقدمت بجنودي إلى (المحمدي) التي تبعد عن الدلم مسافة ثلاث مرميات مدفع.

خرج العدو بكثرة من الدلم، واستقر في قرية متهدمة محوطة بالنخيل، وبعد ثلاث ساعات من المعارك اضطر العدو إلى التقهقر إلى تحصيناته الأولى، تاركاً في ساحة القتال مائتي قتيل، بينهم سبعون رجلاً من أخلص رجال فيصل وشيوخ مشهورون.

وعلى أثر ذلك حاصرنا الدلم من كل جهاته، باستثناء الجنوب المغطى ببساتين النخيل الممتدة حتى زميقة، التي تبعد ميلين ويحتلها ألف وخمسمائة رجل.

---

(١) من كتاب «مانجان»: (تاريخ مصر)، باللغة الفرنسية.

في ٢٧ رمضان/ ١٤ نوفمبر تلقى العدو مدداً يقدر بثمانية آلاف رجل ، فقام بالهجوم على تحصيناتنا ، فأوقفه مشاتنا وهاجمه فرساننا وهزموه ولحقوا به إلى ما وراء زميقة ، وقد كلفته هذه المعارك ، التي دامت يوماً واحداً ، ألف قتيل ومائة أسير .

وبينما كنا نحرز هذا النصر ، كانت حامية الدلم قد خرجت فجأة لتستولي على بعض تحصيناتنا ، ولكن الإمدادات التي أسرعت بإرسالها أحبطت مشروع العدو .

قام رجال زميقة بمحاولة جديدة ، يؤازرهم (تركي حسني) ومعه ألف من المشاة ومائة فارس ، وقد حاولوا الاستيلاء على قافلة تحمل لنا المؤن ، ولكن هزيمة العدو هذه المرة ، بعد تغلغل اليأس إلى نفوسه بسبب خسائره السابقة كانت كاملة ، فأخلى زميقة ، تاركاً لنا كل المؤن الموجودة فيها ، وعدداً من الجرحى ، الذين أسرعت إلى إطلاق سراحهم .

ورغبة مني في الإسراع بالاستيلاء على الدلم وعلى شخص (فيصل) ، أمرت بوضع لغمين تحت أسوار البلدة ، وبينما كان يجري ذلك ، وبينما كانت المدفعية ترمي البلدة بقنابلها ، وكان كل شيء معداً للهجوم على حصن الشمال ، ذهب جنديان هاربان من عساكرنا إلى رجال الحصن وأخبراهم بنوايانا ، ولما أدركوا أنهم غير قادرين على رد هجماتنا آثروا الاستسلام ، واتبع مثالهم آخرون من رجال فيصل الذين كانوا يحرسون مراكز أخرى في البلدة .

لم يعد فيصل قادراً أن يعتمد على سكان البلدة وعلى الفداوية الذين كانوا معه ، فحاول الهرب ، ولكنه وجد نفسه مطوقاً من كل الجهات وعاجزاً عن الفرار .

استسلام فيصل :

استسلم فيصل في ٢ شوال/ ١٩ كانون الأول ، فأرسل (فيصل) تحت الحراسة إلى المدينة المنورة ، وكان يرافقه أخوه وابن عمه ، وهما أيضاً اعتبرا أسيرين .

أخذنا (الدلم) في ٢٣ رمضان/ ١٠ كانون الأول ، بعد حصارها أربعين يوماً . بعد هذا النصر ، اعترفت جميع قرى الخرج بسلطة مولانا محمد علي ، وأسرع الشيوخ الذين انضموا إلى فيصل فأعلنوا خضوعهم لنا ، ويمكننا الآن الاعتقاد بأن مثل هذه الحوادث التي تخلُّ بالأمن في هذه المنطقة لن تقع بعد اليوم» .